٣ أعوام على الغياب

حبيب الزيودي .. الأرستقراطي الصعلوك

مدخل:

عشت الحياة كما يليق بمرها وبمرها
وكما يمر السهم من جسد الغزال مررت
وحدي كنت في برية الدنيا،
ولكن الرماة بلا عددْ

كن راضياً يا قلب
إن الرحلة اقتربت
فلا تجزع على أحدِ
فقد عشت الحياة جميلة
فيها بيوتٌ،
والبيوت بها نوافذُ،
والنوافذ لا تطل على أحدْ.

(من قصيدة «إن الحياة جميلة» لحبيب الزيودي)

(١)

كثيرا ما قرأت وكتبت عن شعراء بأنهم يشبهون شعرهم إلى حد التماهي، ولكني لم أعرف طوال حياتي شاعرا يتمثل في شعره بهذه النصاعة مثل الشاعر الأردني حبيب الزيودي رحمه الله. فهو يمثله بكل جنونه وتناقضاته وتمرده وحزنه وانكساراته وفوضاه وشفافيته وعبثيته وطيبته العربية البدوية اللامتناهية. الشاعر والشعر هنا يتطابقان ليعكس كل منهما تفاصيل الآخر، ليس شكلا وإنما روحا وجوهرا ونقاء.

وما يقال عن التطابق بين الشعر والشاعر في تجربة الزيودي يقال أيضا بشأن التصالح المطلق بين الصعلوك والأرستقراطي في شخصه حياة وشعرا وسلوكا. ففي الوقت الذي كان فيه الزيودي شاعرا ملكيا بامتياز، تتغنى بأشعاره ماجدة الرومي، فإنه في الوقت ذاته يعيش حياة الصعلوك العابث الرافض دون مبالغة أو افتعال أو تصنع، ويكتب شعر الصعاليك ويمجد سلوكه ويمارسه أيضا. عاش عاشقا للأردن محبا لترابه وأهل، مقدسا لعروبته منغمسا في بداوته بعاداتها وأصالتها وكرمها.

(٢)

في مهرجان المربد بالعراق عام ٢٠٠٠م، وفي فندق بغداد تحديدا، وعلى مسرح فندق الرشيد أكثر تحديدا، يصعد هذا الشاعر الأردني البسيط، بملامحه البدوية القمحية الحادة، وهيأته المتواضعة، لا يحمل في يديه أية كتاب أو مذكرة أو ورقة. ويقف أمام الجميع ببنطاله الجينز وقميصه الذي لا يمت إلى الموضة بأية صلة. ولعل الجميع كان يتساءل في تلك اللحظة، ما الذي سيقوله هذا الصعلوك بامتياز. وما إن شرع في تلاوة قصيدته الكبيرة (مئوية عرار) حتى صمتت القاعة الضخمة وبدأت القلوب تدق على إيقاع قصيدته وهو يعلن محبته الكبرى وتمرده المشروع على سلفه «عرار» شاعر الأردن الأبرز، الذي يرى الكثيرون أنه كان خلفه دون منازع، وفي كل شيء. وما زلت أتذكر مع الكثيرين تلك القصيدة التي ذاعت فيما بعد، والتي يقول فيها:

أبعد ظلالك عن عظامي .. إني عبدتك ألف عام
ما مسَّ برقُك حين فَجْفَجَ في السماء سَوى عظامي
أبعد غمامك عن حقولي فهي تستسقي غمامي
اليومَ لي لغتي و ترعى في مفاليها رئامي
واليوم لي باعي وإيقاعي يفيض على كلامي
واليوم لي قمحي وحوراني وعماني و شامي
واليومَ لي وشمي وباديتي وقطعاني أمامي
خلفتني وحدي أجوس الأرض والبيد الظوامي

وما إن انتهى حبيب الزيودي من قراءة قصيدته تلك حتى ضجت القاعة بالتصفيق الحاد، الذي عبر عن الدهشة والإعجاب الكبيرين اللذين حصدهما في تلك القراءة الصباحية التي حضرها عدد كبير من شعراء العالم، وكان حبيب الزيودي أحد نجومها دون منازع.

ورغم صراحة حبيب الزيودي في خروجه على عرار وتمرده عليه في تلك القصيدة التي أعلن فيها نديته لعرار، فإني لم أسمع أو أقرأ لأحد من الشعراء الأردنيين أو غيرهم رفضهم أو اعتراضهم على هذه القصيدة، بل إنهم كانوا يواجهونها بالقبول والإعجاب، ويرون حبيب الزيودي رمزا شعريا أردنيا مُهِمّا يضاف إلى رصيد الشعر الأردني الحديث.

وهذا هو حبيب الزيودي الذي يتقبل الناس فوضاه وتمرده شعرا وسلوكا. ولو كان غير ذلك لما كان حبيب الزيودي الذي جمع حوله القلوب جميعا ملوكا وأمراء وقادة وشعراء وفنانين ونقاد وبسطاء.

(٣)

في رحلة المربد تلك توطدت بيننا المحبة وتعمقت مشاعر الإخاء، فكان مبادرا أن قدم لي دعوة عام ٢٠٠١م للمشاركة في مهرجان الشعر العربي الذي تنظمه أمانة عمان الكبرى ممثلة في بيت الشعر الذي أسسه الذي كان هو يديره.

اللقاء في الأردن ــ الذي تكرر كثيرا ــ منحنى فرصة أخرى للتعرف على حبيب الزيودي في بيئته وبين أهله وناسه وعشيرته. حينها كان حبيب ــ رحمه الله ــ مستشارا ثقافيا كبيرا في أمانة عمان الكبرى، إلا أن أحدا لم يشعر بذلك إطلاقا، إذ إن حبيب لم يتصرف على أساس أنه مسؤول كبير، ولم يظهر أو يتظاهر بذلك بين الشعراء، وإنما فضل أن يكون هو كما يعرفه الجميع، بعيدا عن أي ترفع أو تصنع. يقبِّل الجميع، ويحضن الجميع، ويبتسم في وجه الجميع، وينادي الجميع بكلمة «حبيبي»!

كان يرافق الشعراء طوال الوقت في أحاديثهم وأمسياتهم وسمرهم وسهرهم ونكاتهم وجلساتهم الجانبية. وكان يرقص ويغني ويصفق طوال الطريق وفي الرحلات، تماما كالأطفال في حافلات المدارس.

(٤)

كل من يعرف حبيب الزيودي يعرف كم هو مخلص وودود لأصدقائه، يبادل الجميع بالحب والمودة. ولا يتردد في تلبية دعوة أو حضور فعالية ثقافية.

دعوته عام ٢٠١٢م لمهرجان الشعر العربي الذي نظمه النادي الثقافي. وقد حدثت في تلك الدعوة عدة مفارقات تؤكد أن حبيب الزيودي يظل كما هو الطفل الفوضوي المشاغب اللامبالي مهما تقدم به العمر.

أبلغني أكثر من مرة أنه فقد جواز سفره، إلا أن السلطات الأردنية – نظرا لمعرفتهم به – يمنحونه جواز سفر جديد، «بدل فاقد».

عندما وصل إلى مطار الملكة علياء بالعاصمة الأردنية، قادما إلى السلطنة، اتصل بي بأنه ربما لن يتمكن من المجيء، نظرا لأنه نسي جوز سفره في البيت، ولكن ابنه تدارك الموقف وأحضر له جواز السفر، وتمكن أخيرا من الصعود إلى الطائرة. وحينما هبط من الطائرة في مطار مسقط نسي هاتفه النقال على متن الطائرة وفقده إلى الأبد.

في الليلة التي كان مقررا أن يشارك فيها في النادي الثقافي حضر إلى النادي ولكنه نسي إحضار قصائده. رأيته يجلس مرتبكا ويبتسم لدى أحد الموظفين الإداريين في النادي. سألته إذا كان بإمكاني تقديم أية خدمة له، فأبلغني أنه لم يحضر قصائده ويبحث عن أي شيء من شعره على شبكة الانترنت، وطمأنتني بأن الأمور ستكون على ما يرام. وبالفعل حصل على بعض قصائده المنشورة وارتقى المنصة، بثقة الشاعر الكبير، دون أ يشعر أحد بأي خلل.

وحين غادر السلطنة سلمني بعض قصائده التي أحضرها للأمسية مكتوبة بخط يده، وننشر بعضها مع هذا الموضوع.

(٥)

حينما نقول إن حبيب شاعر يشبهه شعره فإننا نستطيع أن نبرهن ذلك بسهولة تامة. ففي الوقت الذي يكتب قصائد المديح لملك الأردن، ويعلن التمرد على عرار في قصيدة أخرى، فإنه لا يتردد عن الاحتفاء بالشاعر الصعلوك العربي «الشنفرى» في قصيدته البديعة (مديح الشنفرى) التي يتقمص فيها حبيب الزيودي شخصية الشنفرى، مستخدما تقنية الإسقاط الفني، من خلال توظيف شخصية الشنفرى واستحضارها في قصيدة تحمل اسم الشاعر القديم في عنوانها، ولكنها في مضمونها تحتفي بالشاعر الجديد، الذي هو حبيب الزيودي أو أي شاعر صعلوك معاصر. يقول حبيب في مطلع القصيدة:

يبيت على الطوى ذئباً ويعوي
أبياً في منافيها.. طليقا
إذا ما اصطاد فتش عن رفيق
ويحزن حين لا يجد الرفيقا
يفتش في الطريق على فقير
فإن لم يلق أطعمها الطريقا
ولخص عمره شعرا وفقرا
وزادهما الجنون له بريقا

(٦)

طبيعة الحياة التي كان يعيشها حبيب الزيودي، والتي كانت تتسم بالفوضى أثرت سلبا على مشروعه الشعري من عدة جوانب أولها النشر والانتشار. فهو لم يكن حريصا على النشر ولم يسعَ إلى الحضور الإعلامي مثلما يفعل الكثير من الشعراء والفنانين والمبدعين عموما. وبالتالي ظل صوته غائبا عن الكثيرين من الشعراء وقراء الشعر والأدب، بل حتى النقاد. وهذا راجع إلى طبيعته الزاهدة في الظهور أو اللهاث وراء المكاسب، بل كن يهتم أكثر بخدمة لآخرين، ويغلب مصالح الغير على حاجته هو شخصيا.

وقد سمعت من بعض الأصدقاء أن الجهات الثقافية المعنية في الأردن ستعمل على رصد نتاجه الشعري وجمعه وإصداره كاملا. وأعتقد أن هذا المشروع – لو تم – سيكون مهما ورائدا ويستحق كل الاهتمام من الأردن التي أحبها وكان يوصي ابنه بها في شعره:

فإن عطشتِ وكان الماء ممتنعـــا
فلتشربي من دماء العين يا بلدي

وإن سقطتُ على درب الهوى قِطَعاً
أوصيكَ أوصيكَ بالأردنِّ يا ولدي!

(٧)

كانت لنا مع حبيب الزيودي ذكريات كثيرة جدا، وتشاركنا الكثير من لحظات الفرح والمرح والشعر والفوضى والأحاديث التي لا تنسى. وارتدنا معا مقاهي ستظل ساكنة في الوجدان مدى الحياة. وهو من أول الشعراء العرب الذين تعرفت عليهم في بداية انفتاحي على المشهد العربي، وظلت الصداقة متصلة على الدوام، حتى آخر يوم في حياته – رحمه الله.

آخر مرة رأيت فيها حبيب الزيودي كنت قد خططت مسبقا مع الإصرار أن لا أراه! كنت مدعوا إلى مهرجان عرار الشعري بمنطقة إربد في شمال الأردن عام ٢٠١٢م. وقررت ألا أبلغ أحدا بمجيئي إلى الأردن، لاسيما الصديقان حبيب الزيودي ويوسف عبدالعزيز، حتى لا أكلفهما مشقة الحضور من عمّان إلى إربد. ولكني فوجئت بوجود الشاعر الكبير يوسف عبدالعزيز في حفل افتتاح المهرجان! وأخذت عليه العهد أن لا يبلغ حبيب الزيودي بالأمر، وظلت الأمور كذلك حتى انتهى المهرجان. وفي طريقي إلى مطار عمّان، عائدا إلى السلطنة، حيث كانت تقلني الشاعرة عائشة حطاب، تلقيت اتصالا هاتفيا من حبيب الزيودي، الذي عاتبني عتابا شديدا، وفاجأني أنه في إربد! أبلغته بأنني في العاصمة عمّان في طريقي إلى المطار. فأقسم ألا أغادر عمّان حتى يصل هو، وحينها نتفق على الأمور. لم تفلح محاولاتي في إقناعه، فانتظرته حتى عاد من إربد، وجلسنا معا في بهو الفندق الذي استضافني فيه أول مرة. وتجولنا في عمان، ثم رافقني إلى المطار، وهبط من سيارته واصطحبني إلى أن مبنى المطار حيث بقي في انتظاري حتى غادرت إلى قاعة انتظار المغادرين ... وإني ما زلت أتذكر وقوفه في مبنى المطار وهو يلوح بيديه ويرسل القبلات والتحايا للسلطنة وأهلها.

كانت مفاجأة كارثية صادمة حينما تلقيت رسالة من الصديق الشاعر عبدالرزاق الربيعي يبلغني فيها أن حبيب الزيودي قد غادرنا للأبد في ثاني أيام العيد الأضحى قبل ثلاثة أعوام.

وكان وقع الحديث صادما وكبيرا ومؤلما على كل أصدقاء حبيب الزيودي والذين عرفوه. وقد أقامت له الحكومة الأردنية جنازة مهيبة تليق بروح الشاعر والإنسان العظيم حبيب الزيودي. كانت وفاته رحمه الله إثر نوبة قلبية بتاريخ ٢٧ أكتوبر ٢٠١٢م تاركا خلفه إرثا شعريا مهما، ونذكر من أبرز دواوينه:

– الشيخ يحلم بالمطر
– طواف المغني
– ناي الراعي
– منازل أهلي
– غيم على العالوك

ظبي حوران

يا ظبي حوران المهفهف لا تلوم وأنت تدري
روحي أرق من الهجاء فكف عن لومي وزجري
وأعف من سرب اليمام يحط في شباك دير
وأشف من بدوية تسقي الغزال بحوض بئر
من تينة في السفح تؤوي في العشية يتم طير
من راهب يفني الشموع تبتلا والدمع يجري
أحباب شعري أوجع الطعنات من أحباب شعري
كانت خناجرهم معي لكن خناجرهم بظهري
وهمو كبار مناصب ومكاسب وصغار قدر
أنا لا شمالي احمل للشماليين وزري
كلا ولست من الجنوب لأحتمي وأشد أزري
حطمت أصنامي وصحت بصمتها أنا عبد شعري
أنا عبد أوجاعي وإيقاعي وقافيتي وبحري
عبد الحروف تسيل من قلبي بفاصلة وسطر
أدنى لحجر إن دعاني الشعر من أوس بن حجر
بي كل ما سارت به الركبان عن وضحا ونمر
أثث بالشعر الخرائب بين ميلادي وقبري
ولد الجنون أنا وقد عمدته في ماء نهري

حبيب الزيودي